لماذا نكتب للأطفال
نحو رؤية ثقافية لنقد أدب الأطفال

أحمد عبد العليم *

أوَ تدري ما معنى الكلمة؟!
مفتاح الجنة في كلمة
ودخول النار على كلمة
وقضاء الله هو الكلمة
الكلمةُ – لو تعرف حُرْمة– زادا مزخور
الكلمةُ نور
وبعضُ الكلمات قبور

عبد الرحمن الشرقاوي

مقدمة

يمثل أدب الأطفال مجالًا مهمًا للدراسة؛ نظرًا لتأثيره على قطاع كبير من المجتمع من ناحية، ولدوره المحوري في عملية التنشئة من ناحيةٍ أخرى. لقد بدأ أدب الأطفال – تاريخيًا – بوصفه وسيلة تعليمية لتربية الأطفال، وتهذيب سلوكهم، عبر حكايات تعبِّر بطريقةٍ ما عمَّا يريد المعلم / المُربِّي أن يغرسه من قيَم في عقل الطفل ووجدانه، ولكن المعضلة الأساسية تكمن فيما وصل إليه هذا المجال من ناحية الدور وكذلك من ناحية الانتشار.

فأدب الأطفال – كما يبدو – قديم قدَم قدرة الإنسان على التعبير، مثلما هو حديث حداثة القصة التي ترويها "المُدرِّسة" في فصول الدراسة اليوم، أو يذيعها "المذيعون" في ركن الأطفال

* باحث – مصر.

في الإذاعة والتليفزيون هذا الصباح، أو يحكيها "الآباء" و"الأمهات" و"المُربِّيات" بجوار أسِرَّة الأطفال عند النوم، أو يرويها "الرُّواة" في مجتمع الأطفال ليطلق العنان لخيالاتهم وطاقتهم الإبداعية، وتطوير وعيهم وطريقة فهمهم للحياة، وينمي إدراكهم الروحي، مثلما ينمي محبتهم للجمال وللمعرفة، ويبني فيهم الإنسان ويصنعه، فإذا كان لا بد للمجتمع أن يمنح أبناءه أفضل ما يملكه، بل وما تملكه الإنسانية، فإن للأدب في هذا السياق دورًا مهمًا وحيويًا في تنمية الطفل وتطوير عقله، وتهذيب سلوكه، من خلال تأصيل ميله إلى قيم الحق والخير والجمال، ومن خلال قدرته على جذب اهتمام الطفل وتأثيره على مشاعره وطريقة تفكيره.

المنهجية

بدأت الدراسات التاريخية عن الكتابة للأطفال في القرن السابع عشر بنماذج متنوعة، وعادةً ما تبدأ بكتاب «العالم المرئي بالصور» الذي ألَّفه الإصلاحي التربوي التشيكي "چون آموس كومينيوس"، وقد أُتيحت نسخة باللغة الإنجليزية لكتاب «العالم المرئي بالصور» – الذي كُتب باللغة الألمانية عام ١٦٥٨ – في العام التالي في طبعةٍ ظلت تُنشر حتى القرن التاسع عشر، بما فيها نسخة منقحة الصور نُشرت في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، ويجسد كتاب «العالم المرئي بالصور» عدة خصائص للكتابة المبكرة للأطفال، بدايةً من افتراضاته بشأن السن، فـ "كومينيوس" كان يكتب من أجل الأطفال الصغار؛ أي أدب الأطفال، وبينما كان صغر سن القارئ المقصود سمة مميزة لأدب الأطفال عبر تاريخه منذ أيام "كومينيوس"، فإن الطفولة كمرحلة من مراحل الحياة قد توسعت باطِّرادٍ؛ لدرجة أن بعض الأعمال الحديثة التي أصدرتها دُور نشر كتب الأطفال تستهدف "اليافعين" الذين بلغوا سن الثامنة عشرة. ومع ذلك فحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت كتب الأطفال موجهة للأطفال قبل مرحلة البلوغ، والذين عادةً ما كانوا إما على أعتاب بدء تعليمهم، أو في المراحل المبكرة منه. وبعد تعلُّم القراءة، كان الأطفال في معظم الحالات يتشاركون النصوص مع الكبار، الذين غالبًا ما تكون مهارات القراءة لديهم على نفس المستوى تقريبًا. (أدب الأطفال/ مقدمة قصيرة جدًا – تأليف كيمبرلي رينولدز – ترجمة ياسر حسن).

ومن هنا فإن طبيعة الكتابة للطفل وإشكالياتها هو ما ستتناوله هذه الدراسة بالبحث من خلال منهج تحليلي نقدي؛ للوصول إلى رؤية واضحة قادرة على المساهمة في تطوير أدب الأطفال في مصر، وتقديم أطروحات تتعلق بدور أدب الطفل في تنمية الإبداع والابتكار، وأساليب

التفكير وخاصةً العلمي لدى الأطفال، بالإضافة إلى علاقة أدب الأطفال بأساليب تنشئة الطفل، في ظل المتغيرات المعاصرة على المستوى الواقعي والافتراضي، وتدريبه على مواجهة الأزمات الراهنة والمستقبلية بما يخدم أبعاد التنمية المستدامة. وهو ما يطرح ضرورة وضع مجموعة من التساؤلات التي تحتاج إلى دراسة، من بينها:

- ما أدبُ الأطفال؟
- لماذا نكتب للأطفال؟
- مَن يكتب للأطفال؟
- ما المحتوى المناسب للأطفال؟
- ما طبيعة أدب الأطفال في علاقته بمجالات مثل: التنشئة – العلم – الثقافة – الفنون – اللغة؟
- ماذا نكتب للأطفال؟

رؤية تاريخية / مفاهيمية حول أدب الأطفال

يمكن اعتبار أدب الأطفال هو كل مواد تُكتب لكي يقرأها الأطفال والشباب، وتنشرها دُور النشر المتخصصة في نشر كتب الأطفال، وتعرض وتخزن في الأقسام الخاصة بكتب الأطفال. وهو تعريف يبدو بسيطًا إلى حدٍّ مربك، بالنسبة إلى كثيرٍ من المتخصصين في هذا المجال، فتعريف أدب الأطفال يكاد يكون مستحيلًا، فهو شديد الاتساع، ولم تتبلور أبعاده وإحداثياته بحيث يمكن حصره في مجال دراسة.

وعلى كل حال، لقد بدأ كل شيء من القَصَص الشعبي، والحكايات الخيالية، والخرافات والأساطير، والمواويل القصصية، وأغاني الأطفال القديمة، والتي يرجع تاريخ كثير منها إلى عصر ما قبل الكتابة، وصولًا إلى طرق التجسيد في عصر النقل الحرفي الذي نعيشه – مثل الكتب الإلكترونية والروايات التي يؤلفها المعجبون بالأعمال الأدبية الأخرى حول بعض شخصياتها، وألعاب الكمبيوتر – ربما يندرج تحت مظلة أدب الأطفال. علاوة على ذلك، فإن أدب الأطفال – كمجالٍ للبحث والتدريس – يشمل كل الأجناس الأدبية، والصيَغ، والوسائط، وكل فترات الكتابة، وأنواعها، والحركات الأدبية من أي بقعة من العالم، وما يرتبط بذلك من المطبوعات المؤقتة والسلع أيضًا. وهو يشير إلى الأعمال التي وُجِّهت تحديدًا لصغار السن، وإلى الأعمال التي باتت تُعدُّ

أدبًا للأطفال من خلال تخصيصها لصغار القراء، وإلى الأعمال التي كان الأطفال يقرءونها فيما مضى واقتصرت قراءتها الآن على دارسي الأدب. وهنا من المهم أن نؤكد أنه لا يوجد نتاج أدبي واحد مترابط ومحدد يشكل أدب الأطفال، ولكن بدلًا من ذلك يوجد عديد من أعمال أدب الأطفال التي تم إنتاجها في فترات مختلفة، وبطرق مختلفة، ولأغراض مختلفة، وعلى يدِ ألوانٍ مختلفةٍ من الناس باستخدام صيَغ ووسائط مختلفة. (أدب الأطفال/ مقدمة قصيرة جدًا – تأليف كيمبرلي رينولدز – ترجمة ياسر حسن).

الأدب والثقافة

نحن "البشر" كائنات وراثية ثقافية، ولأننا "مبرمجون للتعلُّم" نعيش ونختبر، نجد أنفسنا معرضين إلى الخبرات الناجمة عن العلاقة بين ما نرثه وما نكتسبه، فنحن لسنا الطبيعة وحدها، كما أننا لسنا من تشكيل الثقافة والتعليم وإعمال الفكر فحسب، وهكذا فإن النمو لدينا هو خبرة تتأثر بالوراثة البيولوچيَّة، والظروف النفسية، والثقافية، والاجتماعية، والتاريخ، والتعليم، والجماليات والأخلاق. ومن خلال النمو في تكامله يصبح كل منَّا في حالة تناغُم في كينونته.

ومع أننا عادةً ما نفتقر إلى نزعة الكفاح لتحقيق ذلك النمو المتكامل المتناغم الذي ينبغي أن نطمح إلى بلوغه، مثلما علينا أن نطمح إلى أن ننمو نموًا سويًا بدنيًا بما يشمله ذلك من النمو في جميع أعضاء أجسامنا، وأن ننمو عاطفيًا بصورة متزنة، وأن ننمو فكريًا من خلال المشاركة في الممارسات التعليمية كمِّيًا وكيفيًا، من خلال ما تتيحه المؤسسات التعليمية، وأن ننمو بذوقٍ طيبٍ حيال العالم الذي نعيش فيه، وأن نطمح أيضًا إلى أن ننمو مع الاحترام المتبادل؛ من أجل التغلب على جميع العقبات التي تَحُول دون النمو المتكامل لملايين البشر.

هذا الطرح يجعلنا ننظر إلى الطفولة بوصفها مرحلة في عمر الإنسان، تستدعي من "المجتمع" بمؤسساته كافة العمل معًا من أجل مساندته للوصول إلى نُموٍّ متكاملٍ ليصبح هذا الإنسان الذي يريده المجتمع، وهو ما يعني أن "التنشئة" هي العملية المتكاملة للتعبير عن هذا الفعل المجتمعي قي صورته الكلية، ولا يمكن فصل عناصرها فصلًا تعسفيًا كما يحدث، ونتوقع مع ذلك أية نتائج إيجابية.

ويرى "هربرت ريد" في كتابه "التربية من خلال الفن": "أن للتربية وظيفة مزدوجة، إذ إنها تنمية للتعبير الحسي والتوصيل من ناحية، وتحقيق للتفاهم بين الإنسان والإنسان من ناحيةٍ

أخرى؛ ومن ثَمَّ لا يمكن تنمية الشخصية تنمية كاملة بدون أن تُسقط خبراتها الذاتية على أشكال عينية بحيث يتعاظم حظها من البراعة والدقة في بلوغ هذا الهدف، فالتوفيق بين "الحَدْس" و"العقل"، بين "الخيال" و"التجريد" لا يتسنى إلا بطريقة خلَّاقة من خلال إسقاط جانبَيْ طبيعتنا على بناء عيني، وهذا على وجه الدقة يمثل صميم وظيفة "الفن"، إذ يمثل العمل الفني نموذجًا للتصالح بين مختلف القدرات العقلية والوجدانية، حيث نُخضع دوافعنا للنظام الجمالي – نظام الإيقاع والتناسب – ونغذي العقل بالطاقات الحيوية، فالفرد مثلما يحتاج إلى تربية وتنمية قدراته العقلية، بحاجة أيضًا إلى تنمية حواسه المختلفة، بل إن الإدراك الحسي الصحيح هو أساس التفكير الصحيح، وذلك لكون الحواس هي بوابة الفهم، وأساس كل عملية عقلية".

ومن ثَمَّ يصبح فعل القراءة هو "حوار" يسعى إلى خلق حالة من الوعي النقدي، تفضي إلى إحداث فعل يتسم بالإيجابية لتغيير واقعه، والتمرد على القديم بما يؤدي إلى أَنْسَنة المجتمع البشري والخلاص من ثقافة التسلط، التي تتأصل في منظومة التنشئة من خلال المنهج التقليدي القائم على السمع والطاعة، الحفظ والتلقين، فدور الكاتب لا يقوم على (ملء) عقول الأطفال بالمعرفة – فنية كانت أو غير ذلك – ولكنه يتجسد في محاولة للتحرك نحو أسلوبٍ جديدٍ في التفكير لدى الأطفال من خلال فعل القراءة.

الأطفال بين التنشئة والثقافة

يلتقي النهوض بالإنسان وتنمية وعيه وتطوير إمكاناته، وتوفير الظروف الاجتماعية والإنسانية الملائمة، التي تساعده على الإنجاز والإبداع، مع تنمية البيئة الأساسية، والنهوض بمجمل الظروف المادية؛ ذلك لأن الإنسان هو الصانع الحقيقي لنهضة المجتمع. ويفرز هذا الطرح السابق نتيجة محورية تتمثل في ضرورة أن تحتل الثقافة والتنمية الثقافية مركز الصدارة في أية خطة تنموية، بوصف الثقافة عنصرًا رئيسًا في تنمية الإنسان، وجزءًا جوهريًا في حياة الفرد والمجتمع، وفقًا لمفهومها العام الذي يعني: ذلك النسيج الكلي المعقد من الأفكار والمعتقدات، والعادات والتقاليد والاتجاهات والقيم، وأساليب التفكير والعمل، وأنماط السلوك، وكل ما ينبني عليه من تجديدات وابتكارات، أو وسائل في حياة الناس، مما ينشأ في ظله كل عضو من أعضاء المجتمع، ومما ينحدر إلينا من الماضي، فنأخذ به كما هو أو نطوره، في حدود ظروف حياتنا وخبراتنا (نحو فلسفة عربية للتربية: د. عبد الغني النوري– د. عبد الغني عبود – دار الفكر العربي - ط ٢ – ١٩٧٠– ص ٦٨).

فالثقافة هي الإنسان بوصفه فاعلًا ومنفعلًا، إذ يدخل في إطارها العام كل ما أنتج الإنسان من إنتاج مادي أو غير مادي، سواء أكان تراكمَ خبراتٍ أم ممارساتٍ فكرية، تصورات من عقائد روحية أم صنع أداة من الأدوات أو تقليدًا من التقاليد، فهي تشمل ضمن ما تشمل: أسلوب تربية الأب لابنه، وأسلوب عمل صانع الفخَّار لأواني الفخار، وأسلوب تناول الطعام، وارتداء الملابس، واستخدامات اللغة والرموز، وأسلوب الزواج، ودفن الموتى، فالثقافة إلى جانب كونها سلوكًا بشريًا جماعيًا، ونمطَ عيشٍ مشترك، وإلى جانب كونها قيمًا روحية وعقائد وتقنيات، فهي أيضًا بصورةٍ رئيسةٍ علاقة إنسان ببيئته ومحيطه، وإبداعاته المادية والجمالية وبذاكرته الجماعية، وهي بالإضافة إلى كل ذلك مجموع النشاط الفكري والفني بمعناهما الواسع، وما يترتب عليهما من أساليب وأشكال من القيم، يبتكرها الإنسان ليُكسب إنسانيته معناها الخاص، وينظم بها حياته.

ولعل الثقافة في مجملها تمثل عملية التنشئة بجميع أشكالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... إلخ، ولكي يبدو المدى الذي تؤدي العوامل الثقافية في إطاره لتشق لمسالك الحياة مجراها، يكفي تعقب سلوك فرد واحد خلال يوم واحد، سواء أكان ذلك اليوم في حياة عامل أم رجل من أرباب المهن أم فنان أم عالم، فالنتيجة هي اكتشاف الصورة التي يأتي بها السلوك مشبعًا من أوله لآخره بعوامل وظروف ثقافية في نشأتها ومضمونها باعتبارها أسلوبَ عملٍ ومنهجَ حياة، بالإضافة إلى كونها: ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله أو نتملَّكه كأعضاء في مجتمع (نظرية الثقافة : مجموعة من الكُتاب – علي سيد الصاوي – عالم المعرفة – العدد ٢٢٣– المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – ١٩٩٧– ص١٠).

أين يقف الطفل من كل هذا؟!

إجابة الاستفهام هنا ترتكز على قاعدة عريضة أساسها:

إنه كلما كان بلدٌ ما يرغب في توفير موارد لتطوير الطفل كافية لتزويد كل طفل بإعداد أفضل للحياة، وكانت لديه القدرة على ذلك، زادت الفرصة أمامه لتحقيق ابتعاد حاسم عن الحلقة المفرغة للفقر والركود الاقتصادى (في التنمية العربية – د. إسماعيل صبري عبدالله – دار المستقبل العربي – بيروت –١٩٨٣ – ص ١٣٧) بوصف النهوض بالطفولة ركيزة أساسية للنهوض بالمجتمع وتنميته، وباعتبار التنمية في صميمها هي طموح الأمة الحاضرة نحو إنجاز حياة أفضل للحياة القادمة.

ومن هنا يمكن التأكيد على أن الطفولة هي مرحلة نمو يتصف بها الأطفال، لها خصائص وعادات وتقاليد وميول وأوجه نشاط وأنماط سلوك متميزة، إذ إن للأطفال في كل مجتمع مفرداتٍ لغويةً متميزة، وعاداتٍ وقيمًا ومعايير، وطرقًا خاصة في اللعب وأساليب خاصة في التعبير عن أنفسهم، وفي إشباع حاجاتهم، ولهم تصرفات ومواقف واتجاهات وانفعالات وقدرات، إضافة إلى ما لهم من نتاجات فنية ومادية؛ أي لهم خصائص ثقافية ينفردون بها، ولهم أسلوب حياة خاص بهم، وهي تنفرد بمجموعة من الخصائص والسمات، وتشترك مع المجتمع في مجموعة أخرى (ثقافة الأطفال – د. هادي نعمان الهيتي – عالم المعرفة – العدد ١٣٢ – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – ١٩٨٨).

ويكشف هذا الطرح السابق ما للثقافة من دور كبير في نمو الأطفال في مراحلهم العمرية كافة، وفي أثرها الواضح على جميع قُواهم وقدرتهم وعلى نحوٍ كبيرٍ، من حيث:

- **النمو العقلي**: من خلال تأثر النشاط العقلي بما يستمده الطفل من بيئته الثقافية.
- **النمو العاطفي**: من خلال تنمية استجاباتهم الانفعالية وإكسابهم الميول والاتجاهات وطرق التعبير.
- **النمو الحركي**: من خلال عملية التنظيم لمجمل حركات الطفل ونشاطاته ومهاراته.
- **النمو الاجتماعي**: من خلال نسق علاقتهم بالآخرين، ووفقًا لمنظومة القيم التي تُطرح عليهم.

وينطوي ذلك على مجمل البناء العام لشخصية الطفل، حيث تشكل ثقافة الطفل انعكاسًا حقيقيًا لثقافة المجتمع؛ إذ تُعدُّ بمثابة النسق الأصغر داخل النسق الأكبر للمجتمع، والصلة بينهما مثل الصلة بين الظواهر الكلية والظواهر الجزئية في البيئة الثقافية المعنية. وكما تتأثر ثقافة الطفل بالمضمون الاجتماعي والسياق الكلي للمجتمع، فإنها تتأثر أيضًا بمجمل الأُطُر المرجعية التي تؤثر فيهم، حيث إن الأطفال ليسوا فئة متجانسة فيما بينهم، بل وفي واقع الأمر أنهم ينتسبون إلى طبقات وأصول وانتماءات مختلفة، تؤثر في ثقافتهم، وفي اتجاهتهم الفكرية، وأساليبهم السلوكية، وللممارسات والخبرات التي تهيئها لهم البيئة، وتنتجها الأنظمة التي يكتسبون ثقافتهم من خلالها (ثقافة الطفل العربى: استراتيـجيَّة للتعاون بين البلاد العربية في ثقافة الطفل د: أمينة الجندي – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس– ١٩٩٢) حيث يولد الطفل صفحةً بيضاء تُسطِّرها البيئة والمناخ الاجتماعي الثقافي العام، بالإضافة إلى مجمل الظروف الحياتية.

ومن خلال ما سبق يتضح أن:

أ) الأطفال لا يشكلون جمهورًا متجانسًا، بل يختلفون باختلاف أطوار نموِّهم، وحسب السمات والخصائص العامة النفسية والعقلية والانفعالية والجسدية... إلخ لكل مرحلة من هذه المراحل.

ب) ثقافة الأطفال ترتبط بثقافة المجتمع برباط متين؛ إذ إن كل مجتمع يعمل – في العادة – على نقل ثقافته إلى الأطفال محملةً بطموحاته وتطلعاته الآتية نحو المستقبل.

جـ) ثقافة الأطفال تختلف باختلاف البيئة والفئة الاجتماعية والمهنية.

د) تتجه الثقافة للفرد، ولكنها تسعى لأن تشمل الجماعة كلها.

هـ) تبدأ الثقافة مع الفرد في مراحله الأولى، وتتواصل معه وتتنامى.

و) الثقافة مكتسبة وليست فطرية؛ وبالتالي تعتمد على عملية التربية وإمكان تعديل السلوك.

إشكالية الهوية: المطلق والنسبي في سؤال الهوية

لا تعني الهُويَّة ذلك التكوين الجامد الذي ينتقل عبر الأجيال، دون أن تطرأ عليه عوامل التغير، متحديًا الزمان وتحوُّلاته التي يطرحها عبر ملابسات التاريخ والجغرافيا، وتسمُ مجتمعًا ما في مكان محدد بسمات مطلقة، لا يعتريها التحول. بل تعني ذلك التكوين المنفتح الذي يُبنى من جملة عناصر تنشأ نتيجة لمجمل الظروف الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية... إلخ، وعبر عوامل الدين، واللغة، والتاريخ، وعمليات التأثير والتأثر، والقوى الفاعلة الداخلية والخارجية التي أسهمت في تشكيل هذه الهوية، فتعطي المجتمع خصوصية وتمايزًا، من خلال عملية دينامية مستمرة، تتحول فيها الثوابت والمتغيرات وفقًا لأولويات المجتمع، ولما يواجهه من تحديات، ووفقًا لمعطيات الواقع وطبيعته، وطبقًا لمواقف تعبر عن طبيعة العلاقة بين الذات الموضوع ، أو الأنا الآخر، وطبقًا لمواقف تعبر عن نقاط قوة أو نقاط ضعف، وتُبرز إمكانات وقدرات، وتطرح بدائل، تعبر جميعها عن رغبة عارمة – من قِبل المجتمع – في البقاء، ورفض حاسم للاندثار أو التحلُّل.

ومن هنا فلابد لنا من التمييز بين نوعين من خطابات الهوية ودُعاة الخصوصية: خطاب الخصوصية الثقافية المنغلقة، الذي يتمركز حول أصول ثقافية نقية، ويتشبث بأنساب فكرية قارَّة لرفض الآخر، وثقافته المغايرة، ظنًا منه أن الخصوصية الثقافية ذات جوهر خالص غير قابل للتغيير. وخطاب الخصوصية الثقافية النقدية المناوئ لنزعة التمركز الغربي، وجميع أشكال

التمركز التي تلغي الآخر، والذي يرى في الخصوصية الثقافية مجموعة من الخصائص والسمات التي تشكلت نتيجة تفاعل عوامل مركبة عديدة مع الواقع من طرف، ومع الآخر/ الخارج من طرفٍ ثانٍ، ولا يعتبر الخصوصية الثقافية جوهرًا ثابتًا، ولا مُعطًى جاهزًا، بقدر ما ينظر إليها بوصفها حصيلة تفاعل مع متغيرات ومعطيات الواقع الثقافي المتحولة في إطار الزمن.

لا يكشف هذا الطرح السابق عن رغبة في القطيعة أو بحث في التغريب، بل عن طرح – غير وسطي – لإمكان مقبول يهدف إلى إثارة تساؤلات مشروعة حول ضرورة البحث عن رؤية جديدة لمجتمع جديد، دون أن تعترضنا مُعوِّقات الخوض في إشكاليات الأصالة ومراوغات الحداثة، باعتبارهما الاختيارين الأوحدين للتقدم، ليس تحت دعوى رفضهما، أو رغبةً في التهوين من شأنهما، بل تحت زعم – قد يصدُق – يؤكد وجودهما المستمر في ثنايا عملية الانتقاء التلقائية التي يقوم بها الوعي الجمعي، بغرض الحفاظ على العناصر الخاصة التي تجمع أفراده دون أن تفصلهم عن معطيات العالم وواقعه.

إنها عملية جامعة مانعة، عادةً ما يؤديها المجتمع في ظروفه المختلفة، ويهدف من جرَّائها إلى تشكيل وعي أفراده، بالأسلوب الذي يكفل بروز بدائل عديدة ومتنوعة للوجود والاستمرار وضمان الترابط، إنها عملية "يتم غرس جذورها الأولى خلال عملية التنشئة الاجتماعية، وتتخذ ملامحها في إطار الثقافة العامة التي ينمو في إطارها الفرد، وما يشتمل عليه المجتمع من نُظم ومؤسسات، وتتبلور وتتضح في إطار ممارسات الأفراد خلال حياتهم اليومية وما يزاولون من أنشطة (التعليم والإعلام وتشكيل الوعي الثقافي: د. فؤادة عبد المنعم البكري – مؤتمر ثقافة الطفل بين التعليم والإعلام – كلية رياض الأطفال – القاهرة – ١٩٩٦ – ص١٦٥)؛ إذ تشكل المقومات الثقافية المتنوعة عناصر الهوية الرئيسة حيث تتماسُّ وتتعامد مع الثقافة بمفهومها العام.

تحديات جديدة تواجه كاتب الأطفال

إن العَوْلَمَة وما يصاحبها من وسائل الاتصال، وما يترتب عليها من انضغاط في الزمان والمكان، يُخرج الفرد من دائرة الأسرة، إلى دائرة ثقافية عالمية، تسهم في تشكيل وعيه وبناء شخصيته، وهنا تتجلى قضية التنشئة، والتي تضع الفرد أمام مؤثرات عديدة قد يجد نفسه مشتتًا أمامها، إذا لم يضع لنفسه آليات تكيُّف تُمكِّنه من أن يحقق قدرًا من التوازن بين القوى والمؤثرات المتناقضة؛ ومن أن يكون قادرًا على أن يتقبل الثقافات الأخرى، مع المحافظة بشكل

دائم على هويته الشخصية وهويته الثقافية، ومن تعلُّم آليات العيش المشترك في عالم تتعدد فيه الرؤى والغايات والأهداف. وهو أمر يجبر الكاتب على التعامل مع قضية الإبداع بطريقة أكثر جدية من ناحية، وتجبره على التطور من ناحيةٍ أخرى، بحيث يقدم إبداعًا قادرًا على التعامل مع كل هذه المتغيرات في إطار عام، يمكنه المساهمة بقدرٍ في تنشئة الطفل وبناء شخصيته.

وتُعدُّ التنشئة الإيجابية التي تدعم الطفل من أجل تنمية قدراته ومهاراته المختلفة، في إطار منظومة اجتماعية يمكنها استيعاب جميع أفراد المجتمع، وتستطيع أن تلغي جميع الحواجز التي من شأنها أن تعيق المساواة، وتفسح المجال أمام الفئات المحرومة والمهمشة، وتضمن اكتساب الأطفال للمهارات والمعارف والكفاءة التي تُمكِّنهم من أن ينشئوا أكثر إبداعًا وابتكارًا، وتمكنهم من مقومات التفكير النقدي، وتجعلهم قادرين على التواصل مع الآخر على نحو فعال، وتؤهلهم لحل مشكلاتهم بأنفسهم، وتمنحهم القدرة على التكيف واستيعاب التغيير؛ هذه التنشئة بسماتها الرئيسة هي السبيل إلى تمكين الطفل من التمتع بحياة أفضل، والأساس الذي يقوم عليه المجتمع القوي، والطريق الأفضل نحو تحقيق التنمية المستدامة وتعزيز الرخاء المشترك، وهو الأمر الذي يفرض على المؤسسات الاجتماعية والمنظمات المعنية كافةً، التعاضد والتعاون من أجل تعزيز وحماية حق كل فرد في تنشئة جيدة تعزز فرصه في الحياة الكريمة.

عالم مراوغ... غير متحدد

العولمة Globalization مصطلح مراوغ غير متحدد يكتنفه الغموض، تكاد مدلولاته أن تشمل جميع التحولات الطارئة على العالم منذ عصر "السحر والأسطورة وحتى عصر" الفمتو ثانية والهندسة الوراثية". وكل محاولات التوسع الإمبراطوري منذ عصر الإسكندر الأكبر وحتى عصر رؤساء أمريكا "الصغار". وكل محاولات الاستغلال منذ عصر العبودية وحتى عصر الليبرالية الجديدة. بات الحديث عنها وكأنها الموضوع الوحيد لتجمعات الساسة والاقتصاديين والمفكرين، بل ورجل الشارع أيضًا "وأصبحت شاغلًا أساسيًا للتنظير الثقافي من الإعلام إلى الإبداع ومن تربية الطفل إلى إعداد الدُّعاة الدينيين... ويقود عولمة أيامنا، أباطرة المال، وكهنة تكنولوچيا المعلومات، ومن ورائهم سدنة السياسة" (الثقافة العربية وعصر المعلومات – د. نبيل راغب – عالم المعرفة – العدد ٢٦٥ – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – ٢٠٠١ – ص ٣٩) وتتجلى العولمة عبر مجموعة من العناصر المعقدة التي لا تعرف على وجه الدقة هل هي نتاج للعولمة أم أنها – العولمة – هي نتاجها. وتتمثل هذه العناصر في:

ثورة المعلومات والتفجر المعرفي

والذي أتى للعالم بكتل هائلة من المعارف، مختلفة في الكَمّ، وفي النوع، عن معارف القرون السابقة، وهي في ازديادٍ مستمر، وتنوع هائل، وتعقُّد لا ينقطع؛ الأمر الذي يكاد يستحيل معه استيعابها وملاحظة أبعادها (الخطة الشاملة للثقافة العربية – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس – ١٩٩٦ – ص ٣٨ وما بعدها) والتي نشأت نتيجه تفاعل:

(أ) ثورة الاتصالات التي حولت العالم إلى قرية صغيرة، وربطت الشعوب المتباعدة، فأصبح الإنسان يستطيع أن يرصد ما يجري على الطرف الآخر من الكرة الأرضية، بالصوت والصورة لحظةَ حدوثِه. وفرضت في أجواء الفضاء العالمي السرعة البالغة، وسَعَة المعلومات وتشابكها، وإلغاء الأبعاد وترابطها، وتقلص المسافات الزمانية والمكانية وتجاوزها.

(ب) ثورة في تكنولوچيا المعلومات، والتي تمثلت في اختراع وتطور الحاسوب "الكمپيوتر" الذي أضاف إلى الإنسان قدراتٍ هائلة على الاحتفاظ بالمعلومات ومعالجتها بسرعة خيالية، تتجاوز عبر تطوراتها حدود الوقت والجهد المبذول في العصر الماضي بطريقةٍ لا يمكن تصورها (تحضير الطفل العربي لعام ٢٠٠٠: د. محمد عماد زكي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٠ – ص٣٠ وما بعدها).

الثورة العلمية والتكنولوجية

التي تفرض على العالم وسائل وعلاقات جديدة، وطرقًا في العمل لم تعرفها البشرية من قبل، وهي تتوسع وتتعمق عبر تقنياتها القديمة، وتتجاوزها، حيث تحدث فجوة هائلة السَّعَة بين المنجزات التكنولوچية وما نتج عنها من ثقافة، وبين الثقافات التقليدية العريقة. "تتمثل الثورة العلمية والتكنولوچية في تلك التغيرات الثورية التي تحققت في مجالات عديدة، في مقدمتها الإلكترونيات الدقيقة، والآلات الحاسبة، والإنسان الآلي، وصناعة المعلومات والاتصالات، والطاقة النووية، وتكنولوچيا الفضاء، والطيران النفاث، ويمكن أن نوجزها تحت مسمى ثورة تكنولوچيا المعلومات، وثاني هذه المجالات هو استخدام منجزات علم الأحياء والهندسة الوراثية، وأبحاث الفضاء وتلك هي ثورة التكنولوچيا الحيوية، أما ثالث مجالات الثورة العلمية والتكنولوچية فهو مجال تخليق المواد الجديدة، وإحلالها محل المواد الطبيعية... وهذه هي ثورة تكنوچيا المواد" (الرأسمالية تجدد نفسها – د. فؤاد مرسي – عالم المعرفة – العدد ١٤٧ – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت – ١٩٩٠ – ص ٣٨).

التغيرات الاقتصادية

في ظل العولمة، حيث التدويل المُطَّرد للعلاقات الاقتصادية، وسيادة سياسات السوق المفتوح، والاقتصاد الليبرالي، وعولمة الاقتصاد، بدءًا بعملية الإنتاج وانتهاءً بعمليات التجارة والتداول، وحيث "لم تعُد المنافسة الاقتصادية تقتصر على ميدان الإنتاج المادي، بل امتدت إلى المجال غير المادي، إلى مؤخَّرة الإنتاج الحديث، وأصبحت التكنولوچيا الحديثة موضوعًا أساسيًا للتجارة الدولية" (الرأسمالية تجدد نفسها – مرجع سابق – ص ٢٩) وما نتج عن هذا من تداعيات سياسية واجتماعية وثقافية من شأنها أن تشكل النمط الثقافي والحضاري لأي مجتمع. فالعولمة نتاج عديد من المقدمات المباشرة وغير المباشرة، التي صاغت كوكبنا على نحوٍ جديد، بحيث أصبحت منظومة مترابطة بإحكامٍ شديد، يؤثر ما يحدث في أي جزء فيها على مجريات الأحداث في العالم أجمع. حيث تطور الاقتصاد الرأسمالي إلى أساليب شديدة التعقيد، وانتقل معها العالَم من عالمية السوق والتجارة والتداول والتوزيع والتبادل، إلى عالمية حلقة الإنتاج وإعادة الإنتاج في ظل شركات متعدية الجنسيات.

فخ الوصاية: الجدل الأخلاقي حول أدب الأطفال

عندما نتحدث عن الجدل الأخلاقي في أدب الطفل نعني به "إشكالية القواعد العامة التي تحكم المحتوى" فلا نقصد هنا الشكل التقليدي للأخلاق، بل نقصد المبادئ والقيَم الأساسية التي يدور الفن في مدارها، فلكل فن مجموعة من القواعد الخاصة التي تهتم بطبيعة وأدوات هذا الفن أو ذاك، والسبل التي يسير فيها من حيث الشكل والمضمون، وهو موضوع يخص "نقد الفن" وسنناقشه لاحقًا، وموضوع يخص القيم التي تحكم الفن، فاليونان القدماء كانوا يرون في كل فن صنعةً وفي كل صنعة فنًا؛ ومن ثَمَّ فالطبيب فنان وصناعته الشفاء، والكاتب فنان وصنعته التأليف وهكذا ولكل صنعة قواعدها وأخلاقها التي تحكمها، فعلى سبيل المثال، يُعد قَسَم "أبقراط" مجموعة القواعد والقيم التي تحكم فن/ صنعة الطبيب. ومن هنا فإن غاية الفن أخلاقية بامتياز؛ حيث يسعى من خلالها إلى استثمار الفنون في التنشئة والتربية والتعليم، بما ينمي إمكانات العقل ويطورها، ويهذب الذوق واللذات الحسية. وليس الانسجام الذي يدعو إليه أرسطو في تصوره للفنون إلا دليلًا على ضرورة الانسجام الذي ينبغي أن يسمَ حياة الفرد في علاقته بذاته وبمجتمعه. والواقع أن غاية الفن عند أرسطو، وكما يرى المحدثون، هي تحقيق

التوازن النفسي لدى الفرد، والتكامل بين أعضاء المجتمع، ومن هنا كان الفن من ضرورات الحياة البشرية، ولقد كان لفلسفة أرسطو في الفن تأثيرٌ عظيمٌ في العالم الأوروبي. فتأثر النقاد بكتابه "فن الشعر"،؛وخاصة في القرنين: السابع عشر والثامن عشر، وعنه أخذ الكلاسيكيون المعايير العقلية للنقد الفني، وأهمها ضرورة توافر الوحدة العضوية في العمل الفني" (فلسفة الفن رؤية جديدة – حسين علي – التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٩، بيروت – لبنان).

وكثيرون هم الخبراء والفلاسفة الذين يطرحون أهدافًا وأدوارًا للفنون؛ وخاصةً عندما يكون جمهورها المستهدف هو الأطفال. ومن هنا فعندما نتحدث عن أدب الأطفال فنحن نتحدث عن فعل قصدي في طبيعته، يستهدف إحداثَ تغييرٍ ما في "المتلقي" وهم في هذه الحالة الأطفال، وكما يرى أرسطو فإن الفن أداة لـ "لتعليم". ونحن نحكم على الفن من خلال المنطق العقلاني في"صنعه". لأن الفعل إذا تم بعقلانية دفعنا نحو "الأخلاق" ومن ثَمَّ نحو السعادة، ولا بأس في أن تتحرك مشاعر الجمهور بسببه؛ لأن في ذلك مشاركة إنسانية لصفة توحُّدهم (المشاعر/ العاطفة). إذ يؤلف أدب الأطفال دعامة رئيسة في تكوين شخصيات الأطفال عن طريق إسهامه في نموهم العقلي، النفسي، الاجتماعي، العاطفي، اللغوي، وتطوير مداركهم، وإغناء حياتهم الثقافية... وهو ليس أداة – بحدِّ ذاته – لفائدة الطفل بقدر ما هو أداة للنهوض به وبالمجتمع كله... إنه وسيلة من وسائل حياة الطفل التي هي أساس حياة المجتمع كله، وعليه يقوم البناء النفسي والعقلي والاجتماعي والعاطفي للإنسان الجديد (أدب الطفل.. فلسفته وفنونه ووسائطه – هادي نعمان الهيتي).

بينما يرى آخرون تعدد أدوار أدب الأطفال وتنوع أهدافه، ما بين تربوية واجتماعية ووجدانية... إلخ، وهو الأمر الذي يجعل كاتب الأطفال أمام معضلة إبداعية وأخلاقية، فالكتابة للكبار تتحرر فيها القدرة الإبداعية بشكلٍ كبير، بينما الكتابة للأطفال تزداد فيها التحديات؛ نظرًا لطبيعة الفئة المستهدفة، ومهما تكن طبيعة النص الأدبي المقدم للطفل، فلا بد أن يحقق جملة من الأهداف التي يضعها الكاتب نُصْب عينيه حين يقوم بإعداد النص الأدبي، وبمقدار ما يتمثل الطفل تلك الأهداف، يكون نموه باتجاهات النمو المختلفة، العقلي والتربوي والمعرفي واللغوي، فلا خير إذًا في نص لا يسهم في تنمية الطفل في هذه الجوانب أو بعضها على الأقل. ولا يُشترط أن يتضمن النص الواحد جميع الأهداف، وربما توصل كاتب النص إلى تحقيق أهدافه بجملةٍ من النصوص، تتكامل وتتضافر في تحقيقِ جملةٍ من الأهداف المرسومة .(أدب الأطفال وأساليب

تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم – عبد الفتاح أبو معال– دار الشروق للنشر والتوزيع – ط١ – ٢٠٠٥ – فلسطين).

يقول "شيللر" في رسالته المعنونة "في التربية الجمالية للإنسان": "إن الفن ينبغي له أن يكون أساس التربية، فتنمية الحس الجمالي هي جوهر تنمية العقل والأخلاق"، ومن هنا فنحن بحاجة إلى مدخل تربوي يتصف بسماتٍ بعينها بحيث يصبح سهلًا، بسيطًا، غير مكلف، بالإضافة لأن يكون ممتعًا، ويخلق الأمل في التغيير، ويتجاوز ثنائية المعلومات / السلوك، وداعمًا للمهارات العقلية على تنوعها... إلخ، وأن يهتم أيضًا بالمعلومات والقيم ودمجهما معًا بعمقها واتساع مساحتها؛ إذ ينبغي أن يكون داعمًا للمهارات المتنوعة والمختلفة، وقادرًا على أن يخلق عملية تفاعلية بمجهودات بسيطة وموارد مناسبة، بحيث يصبح مرتكزا على الطفل ذاته، مع الوضع في الاعتبار دور أكثر فاعليةً وتفتحًا للمُربِّي / المعلم ، متماشيًا مع ثقافتنا الاجتماعية وداعمًا للتطوير والتحديث المنشود، في ضوء استراتيـجيات وخطط التعليم الحديثة التي يتم اعتمادها.

ينبغي أن يسهم الأدب إذًا في تنمية الأطفال من خلال جوانب متعددة، سواء الجانب العقلي، وتنمية خياله؛ وكذلك الجانب الإدراكي، والجانب الوجداني... إلخ؛ ومن ثَمَّ يلعب دورًا مهمًا، ومن خلال سلوكيات الشخصيات الذين يُعجب بهم الطفل ويقدِّرهم، فيقلدهم ويتبنى ممارساتهم دون تردد، ومن هنا يمكن له أن:

- يكشف للطفل عن البيئة التي يعيش فيها بمستوياتها المتعددة، على المستوى المحلي، والقومي، والعالمي... إلخ، مثلما يقدم له تنوعها الطبيعي، الجغرافي، الاجتماعي، والتاريخي... إلخ.
- يقدم للأطفال الأنماط المتنوعة للتفكير، ويطرح عليهم نماذج للسلوك المناسب في المواقف المختلفة.
- ينمِّي الجوانب الوجدانية والروحية للأطفال.
- يعدُّ الأطفال للمستقبل في ظل عالم متغير، تحتل فيه التكنولوچيا دورًا رئيسًا.
- يسهم في تشكيل ثقافة الطفل، وإثراء لغته.
- يدعم قيم ومواصفات التفكير الإبداعي، وينمي التفكير الابتكاري.

وعبر عملية اكتشاف الذات، ينتقل الطفل إلى إدراك الموجودات من حوله (الجمادات، النباتات، التعرُّف إلى دوره في الحياة، التعرف إلى دور الآخرين) وهي عملية مهمة وسيتم بناؤها اعتمادًا على تعميق مدركاته وخلق المعاني التي يختارها بفاعلية ونشاط من خلال خبراته

الحسية، تلك الخبرات التي سوف تتحول إلى معلومة (الوظيفة الإدراكية)، ثم يقوم بتفسير تلك المُدرَكات الحسية بحيث يصبح لها معنى في علاقتها ببُنَى المعنى الخاصة بهم (الوظيفة التفسيرية التأويلية).

إننا لا نحصل على مدركاتنا من الأشياء وإنما تأتي مدركاتنا من داخلنا "وهذا ليس معناه أنه لا يوجد شيء خارج وجودنا، بل يعني أنه لا يمكن أبدًا معرفة الأشياء خارجنا أيًا ما تكون هذه الأشياء إلا بواسطة فَلْتَرتِه؛ أي تصفيته من خلال النظام العصبي للإنسان، وأن ما ندركه يُعد بالتأكيد وظيفة لخبراتنا وافتراضاتنا وأهدافنا (أي حاجاتنا السابقة). بعبارة أخرى، فإن الشخص المُدرِك هو الذي يقرر ما طبيعة هذا الشيء؟ وأين يقع؟ ولماذا؟ وفقًا لهدفه وفي ضوء الافتراضات التي يضعها، وهذا معناه أن الشخص يميل إلى إدراك ما يريد ويحتاج إلى إدراكه.

وربما يصبح من الضروري أن أُنهي هذه النقطة حول الجدل الأخلاقي وأدب الطفل – لأطرح ما أظنه رؤية واضحة، وتعبيرًا محددًا عن هذه النقطة – بما كتبه أحد روَّاد أدب الأطفال في مصر والعالم العربي "أحمد نجيب":

هل نستجيب لنداءات أدب الأطفال في بلادنا، وهو يُهيب بنا أن ندخل به عصر النهضة الكبرى على أرضنا الخالدة العريقة، بما يتفق مع دوره الخطير في دنيا الطفولة صانعة المستقبل، والتي ستحمل عبء تشكيل الحياة على هذه الأرض الطيبة في مطلع القرن الحادي والعشرين، في الوقت الذي تبدأ فيه البشرية الألف الثالثة من تاريخها الميلادي على سطح هذا الكوكب، بحضارة رهيبة معقدة، واندفاع تكنولوچي لم يسبق له نظير.

فهل نرتفع بأطفالنا إلى مستوى قدرهم الجديد؟

وهل نرتفع بأدب الأطفال إلى مستوى مسئولياته الكبرى كأداةٍ رئيسةٍ في بناء شخصيات صناع المستقبل في القرن الجديد؟

إنها أمانة الأجيال في عنق كل من يستطيع أن يضيء شمعةً على الطريق، أو يضع لَبِنةً ليرفع صرح الطفولة شامخًا عاليًا في السماء. (أدب الأطفال علم وفن – أحمد نجيب – دار الفكر العربي – ١٩٩١).

لا شك أن نقاشًا من هذا النوع قد يظنه البعض فعلًا تسلطيًا بامتياز، يفرض على الفنان/ المبدع نوعًا من القيود التي تحدُّ من قدراته، وتقف حائلًا بينه وبين تقديم فنٍّ جميلٍ وممتع، فليس من الضروري أن يكون للأدب وظيفة بما يعني أن الفن من أجل الفن، والإبداع من أجل الإبداع،

ولا يمكن أن يوصف العمل بالإبداع إلا لو كان حُرًا بلا قيود أو رقابة. وهو رأي أراه خاليًا من المعنى في معظم عباراته، إذا كان المقصود هو "الأدب". فالأدب في أصله – رغم كونه فعلًا إبداعيًا جماليًا – فعلٌ اجتماعيٌّ / تواصُليٌّ بامتياز، وطالما قام المبدع بعرضه على جمهور من المتلقين، فينبغي له أن يقدم "معنًى"؛ ومن ثَمَّ رسالة ما. وإن كان هذا لا ينفي على نحوٍ من الأنحاء ضرورة تمتعه بالتقنيات والجماليات التي تخصه وتحكم معطياته، وهنا تكمن المعضلة، ويتجلى التحدي الإبداعي.

غواية الإبداع: الجدل الفني حول حرفية الكتابة للأطفال

البشر هم الكائنات الوحيدة القادرة على أن تكون "ذاتًا" و"موضوعًا" في الوقت نفسه، فاعلين ومفعولين، وهم أيضًا قادرون على الوعي بهذا وإن كان بدرجات متفاوتة؛ ومن ثَمَّ لا يمكننا التغافل عن السياق المادي الذي يعيشه الأطفال وطبيعته بأيَّة حال من الأحوال، ومن هنا فمن الضروري عند إنتاجِ إبداعٍ ما للأطفال دراسة الواقع دراسة نقدية، تُمكِّنه من التعامل مع هذا السياق المادي ومراعاته عند ممارسة فعل الكتابة، وتقديم العالم للأطفال بشكل نقدي، والربط الحذِر بين الرؤية النظرية والتطبيق العملي / الممارسة. بما يسهم في اكتساب الأطفال للمهارات والمعارف والكفاءة التي تُمكِّنهم من أن ينشئوا أكثر إبداعًا وابتكارًا، وتمكنهم من مقوِّمات التفكير النقدي، وتجعلهم قادرين على التواصل مع الآخر على نحو فعال، وتؤهلهم من حَلِّ مشكلاتهم بأنفسهم، وتمنحهم القدرة على التكيُّف واستيعاب التغيير.

وربما يكون الفارقُ الجليُّ بين أدب الأطفال وغيره فارقًا يتعلق بالموضوع مثلما يتعلق بالأسلوب، ويظهر هذا في المستوى اللغوي، والأسلوبي، مثلما يظهر في الموضوعات التي يتطرق إليها، أو القضايا التي يعالجها، فالنص الأدبي هو الذي يمتاز بتوافر الشروط الفنية، والجمالية، والإبداعية التي تميزه عن النص العادي، وهو اشتراط ضروري لأدب الأطفال مثلما هو ضروري للأدب بصفة عامة، فلابد لـ "المتلقي" أن يدرك ما في النص من جمالٍ وإبداع، وأن يتمكن النص من نقل تجربة الأديب ورؤيته بوضوح.

ويؤكد الأدباء والمبدعون على مقولة مفادها أن الكتابة للطفل عملية بالغة الصعوبة على مستوياتها كافة، ومجال لا يستطيع أي مبدع خوض غماره، فهو فنٌّ عصيٌّ على كثيرين من الكُتاب والمبدعين (أو هكذا ينبغي أن يكون) إذ لا يقدر الجميع على السيطرة على أدواته، وتقديم

أعمال مبدعة قادرة على جذب الطفل والتأثير فيه، فنحن أمام جمهور / مُتلقٍّ من نوع خاص، يستلزم سماتٍ استثنائيةً لشخصٍ وقدرات الراغب في القيام بهذا الفعل الإبداعي على مستويات عدة، فإلى جانب قدرته على الكتابة بمميزاتها الفنية، وجمال الأسلوب، وطرافة الأفكار، وتعالِي المعنى وسموه، وخصوبة الخيال، يتحتم عليه أن يقدم كل هذا في سياق قدرة الأطفال على التعامل مع ما يقدمه، في حدود مهاراتهم التعليمية، ومستوى تحصيلهم، وطبيعة خبراتهم المَعِيشة، وقدراتهم العقلية والنفسية.

وهو الأمر الذي يستدعي أن يكون المتصدي للكتابة للطفل صاحب موهبة استثنائية، وخيال واسع وخصب، ولغة متمكنة وسلسة في الآن ذاته، مع تمتعه بثقافة موسوعية متجددة، وأن يدرك أن ما يقوم به من فعل سيترك أثرًا في روحِ شخصٍ ما (سلبًا أم إيجابًا) وسيسهم في تغيير رؤية شخص ما للعالم، وهو ما يعني مسئولية إنسانية غير محدودة الأبعاد، وفي واقع الامر فإن قله قليلة من الكُتاب يمكنهم الخروج من مأزق الأسلوبية من ناحية، والنجاة من فخ الوصاية والعظة من ناحية أخرى، من خلال قدرته على صياغة توليفة إبداعية دون أن يطغي أحدهما على الآخر. فيقدم له عملًا إبداعيًا أصيلًا، يصبو نحو الحق، والخير، والجمال، ومفعمًا بالخيال والأمل والحياة.

في كل مرة أُقدِم فيها على الكتابة للطفل يراودني شعور بالرهبة وأنا على أبواب الكتابة لراشد صغير يشاركني الحياة، ويشهد – مثلي – على ما يدور فيها من أحداث. هذا هو مصدر الرهبة، أن تكتب لقارئ لا يمكن خداعه أو الكذب عليه، قارئ يعي بأنه شخص مستقل، يرفض الوصاية عليه، يؤمن بحريته وحقوقه التي يعرفها ويطالب بها، لكنه في الوقت نفسه طفل صغير يحتاج إلى الحماية والرعاية، فإلى أيٍّ منهم ستنحاز أثناء الكتابة؟ (أدب الأطفال.. علم وفن – أحمد نجيب).

أدب الأطفال واللغة

اللغة مهارة خاصة بالإنسان، وقدرته على تعلُّمها متواجدة في موروثاته الجينية، حيث يولد الطفل وهو مزود باستعداد لغوي خاص يُمكِّنه من اكتساب اللغة وتعلمها، وذلك في إطار السياق المناسب، ومن خلال نظام "إسناد وتعضيد اكتساب اللغة" على حد قول "جيروم بروير" وهذا النظام يتمثل في العائلة والمجتمع، وهذا النظام يشجع الطفل على تعلم الكلام، ويتيح له الفرص

لاكتساب اللغة، بطريقة تلقائية، أثناء القيام بالممارسات اليومية، مثل: التغذية، والتنظيف، وأثناء اللعب، وغيرها من الممارسات اليومية المعتادة، التي عادةً ما تكون مصحوبةً باستخدام اللغة.

وهو ما يؤكد على عاملين رئيسين في اكتساب اللغة وتعلمها، وهما العامل الذاتي والذي يتمثل في دور الطفل في عملية التعلم، والتي تتفاوت حسب الفروق الفردية، والعامل الموضوعي المتمثل في الظروف الاجتماعية التي يتعرض لها الطفل بتنويعاتها المختلفة، والتي تمنح الطفل الفرص للتعلم واكتساب اللغة. وهو الأمر الذي يؤكد كونَ اللغة في حد ذاتها فعلًا اجتماعًيا بامتياز، إذ تحدد الجماعة دلالات اللغة، وفي إطار هذه الدلالات يلتقي الأفراد. ومن هنا فهي تميز الإنسان عن كونه "كائنا بيولوچيًا" لتضيف إلى ماهيته بُعدًا رئيسًا وهو كونه كائنا متكلمًا؛ ومن ثَمَّ يمتلك القدرة على التفكير، إذ تُعد اللغة أداة الإنسان للتعبير والتواصل مع "الآخر" مثلما هي أداة الإنسان في التفكير، فمن دون اللغة يصبح الفكر "كتلة سديميَّة" على حد قول "دي سوسير" لا شكل لها ولا صورة، وهو ما يعني أن اللغة تمثل شرطًا "وجوديًا / أنطولوچيًا" للفكر. ويسعى الإنسان عبر فعل الكلام ومن ثَمَّ عبر اللغة إلى إضفاء "المعنى" على وجوده الخاص، وتتحول اللغة برموزها المتنوعة من أداة (ذرائعية) للتواصُل، إلى منظومة عقلية / معرفية متكاملة الأبعاد، تطرح رؤيةً للوجود، وتقدم تفسيرًا للعالم، عبر رموز تمنح الحيوية للوقائع وللأشياء.

وتأتي إحدى معضلات أدب الأطفال المتعددة من هذا التناقض اللغوي في المجتمع القائم على استخدام اللغة الفصحى للكتابة، واللغة العامية للكلام والتواصل، وهو ما يستمر فترات الطفولة المبكرة وحتى دخول المدرسة. ومن ثَمَّ تصبح العلوم والآداب موضوعًا خاصًا في وعي الطفل، يوجد في منطقةٍ بعيدةٍ إلى حدٍّ ما عن التفاعلات اليومية الاجتماعية، وتصبح اللغة الفصحى (اللغة) غير القابلة للاستخدام اليومي، وهو ما يمنع عنها مجالًا حيوًيا للتطور والنمو، ويحدُّ بطريقة ما من تأثيرها، وإن ظلت تمتلك تأثيرًا على قطاعٍ من المجتمع، بوصفها لغة المعرفة والثقافة، وهو ما يفرض على الكاتب تحديات (مضافة) أثناء قيامه بالعملية الإبداعية؛ وخاصة في اختياره للمفردات اللغوية، وفهم شحناتها الدلالية، وأسلوبه في التركيب اللغوي، إلى جانب عناصر بناء (الموضوع) الإبداعي، سواء أكان قصة أم رواية أم غيرها من الأشكال الإبداعية الأدبية للأطفال. فعلى الكاتب أن يعي طبيعة جمهوره / المتلقي التي تمنحه معطيات خاصة، وتقدم له إحداثيات بعينها دون غيرها أثناء قيامه بالعملية الإبداعية، والتي تضطره تحدياتها الموضوعية المتنوعة إلى أن تكون عملية واعية / قصدية إلى أبعد حد.

في مديح السذاجة:

يحكي "تشيكوف" أن عمَّه حاول يومًا أن يعلم هِرَّة صغيرة، في عمر مبكر، صيد الفئران، فأحضر فأرًا إلى الغرفة حيث تحيا الهرة، ولكن الهرة الصغيرة لم تلتفت إلى وجود الفأر، وقد باءت كل محاولات العم بالفشل، بحيث تتقدم الهرة خطوة واحدة نحو الفأر، وحين كبرت الهرة، كبر معها الخوف من الفأر، لقد أخفق عمي في تربية الهرة لأنه دعاها إلى الصيد قبل الأوان بأسلوب جبري، قسري، أفقدها الشجاعة... لقد كان لي شرف تعلُّم اللغة اللاتينية على يد عمي "الجاهل"، وعلى صعيد تربيته الرعناء، تخرجت كارهًا للغة، وكارهًا عمي، وكارهًا الطرق الجبرية القسرية. (هادي نعمان الهيتي – أدب الطفل).

يطرح "كاتبُ" ما رؤيته حول الكتابة للأطفال قائلًا: أنا أحاول أن أهبط إلى مستوى الأطفال لأكتب ما يتناسب وعقل الطفل وإدراكاته. وهو حديث يستنتج منه المنصت أن عقل الطفل لا يمكنه أن يستوعب بعض الأفكار، وقاصر عن فهم بعض الكلمات ومن ثَمَّ المعاني اللغوية؛ ومن ثَمَّ ينبغي على الكاتب أن "ينزل" من عليائه ليلتقي بالطفل في نهاية "المُنحدَر" اللغوي، وهذا الأمر يتجلى بوضوح من خلال فعل الكتابة، عندما يقوم به "كاتبنا" الذي يهبط، فنجد أفكارًا تنمُّ عن سذاجة يدعوها (توضيحًا)، وكلماتٍ تنم عن ركاكة يدعوها (تسهيلًا) وتجارب تنم عن سطحية يدعوها (تبسيطًا). فيُعرض الأطفال عن قراءة ما يكتبه، فيؤكد من عليائه عن وجود قصور ما في عقول الأطفال، وعلينا جميعًا أن ندفعهم للقراءة.

وهو ما يجعلنا نتأمل فعل القراءة / التلقي عند الأطفال لنستكشف بعض مزاعم "كاتبنا". وفي البداية قد نؤكد أنه ربما يكون تعلُّم "القراءة والكتابة" فعلًا قسريًا ينم عن إجبار، فكما يوضح "بورديو" فإن فعل التربية يمثل عنفًا رمزيًا في بعض مقتضياتها الاجتماعية، بينما تصبح "عادة القراءة" فعلًا إراديًا وحُرًا بامتياز، وهو ما يستدعي استنتاجًا آخر أظنه مهمًا، ويتعلق بطبيعة ما نقدمه للأطفال، وعلاقته بمسألة الإبداع والتلقي، وأقصد هنا أن الأطفال هم الجمهور المتلقي بالنسبة إلى الكاتب، والعلاقة بينهما ينبغي لها أن تُؤسَّس على مبادئ الاحترام الكامل للطفل وعقله، وإدراك أن الكتابة الإبداعية للطفل ذات طبيعة خاصة، تجعل منها أمرًا صعب المنال، إذ تجبر المبدع على التعرف إلى طبيعة المتلقي المستهدف من نواحٍ عدة، ربما يكون في مقدمتها، قضية اللغة، وهو أمر يتعلق بـ "القاموس اللغوي" للطفل في مراحله العمرية المتعاقبة، لكي يتمكن من أن يقدم "خطابًا" يتسم بالإقناع، وأن يُنتج عملًا إبداعيًا ناجحًا، وهو يصبح كذلك عندما يقرؤه

الأطفال، وهو ما يعني أن يعي الكاتب أن عقل الطفل لا يتسم بالمحدودية، بل إنه يدرك الأشياء من خلال حواسِّه بطريقة مختلفة؛ ومن ثَمَّ يقدم فهمًا للعالم يختلف عن عالم الكبار، ويكون رؤية لوقائعه تخصه هو.

ودعنا في هذا الصدد نؤكد مع "پاولو فريري": لا يصبح أحدٌ فجأة ناضجًا في الخامسة والعشرين من عمره، إذ إننا نصبح ناضجين مع كل يوم يمر علينا. إن الاستقلالية عملية نضج؛ أي عملية تشكيل الوجود، وهي لا تحدث في وقت معين، وإنما هي مرهونة بالخبرات التي تثير اتخاذ القرار والمسئولية... إن أفضل الطلاب في مواد الفيزياء أو الرياضيات ليسوا أولئك الذين يحفظون معادلاتها، وإنما هم أولئك الذين يدركون الأسباب والعوامل التي أدت إلى بلورة تلك المعادلات، أما إذا ما قام الدارسون باستقبال محتوى المناهج التي تُصبُّ في عقولهم باسم المعرفة بإذعان، أصبحوا غير قادرين على التفكير وازدادوا ميلًا نحو الاجترار. إن التواضع هو في صميمه تعبيرٌ راقٍ عن الثقة في النفس، وتقدير الذات واحترام الآخرين. وهي الصفة الأولى التي ينبغي على الكاتب أن يتحلى بها إذا أراد أن يصبح "كاتبًا ناجحًا".

يقول "چون أيكُن": ينبغي لكاتب الطفل أن يتعرف إلى الأطفال الذين يكتب إليهم، خصائص نموِّهم البدني، والعقلي، والوجداني، واللغوي، والفكري، والاجتماعي، وأن يفهم خصوصية المجتمع وطبيعة السياق الذي يحيا فيه الأطفال .

عليك قبل البدء بالكتابة للأطفال أن تكون واثقًا في نفسك فيما إذا كنت تكتب عن الأطفال أو للأطفال. هل لك قارئ أو قراء مرتقبون؟ ولكن ما لم يكن لك أنت الكاتب قارئ محدد راسخ الهدف الذي توجه قصتك نحوه أو عملك الأدبي، فلعل مُؤلّفك يتذبذب ويتردد ويسقط بين أسلوبين وتضيع الفرصة، وبناءً على هذا ولأجل الوضوح في أسلوبك وعرضك ومنفعتهما، عليك أن توطِّد قناعتك قبل أن تبدأ وترى إذا كنت تنوي أن تكتب لفلانة أو فلان من الأطفال.

ويواصل "چون أيكُن" حاثًا على أن يتعرف كاتب الأطفال إلى جمهوره: أديب الأطفال ينبغي أن يتعرف إلى جمهور الأطفال، أن يحيط بهذا العالم الغريب – رغم أن الإحاطة التامة تظل أمرًا عسيرًا – لأن ما يُكتب شكلًا ومضمونًا يخضع لطبيعة هذا الجمهور وخصائصه، ولا يكفي أن يتعرف الأديب إلى عدد من الأطفال سواء أكانوا أبناءه أم أبناء جيرانه أم تلامذته، بل ينبغي أن يدرس جمهور الأطفال دراسة علمية معتمدًا على ما توصل إليه رجال التربية وعلم النفس. (نعمان الهيتي– أدب الأطفال).

عالم صوفي: تجليات الكتابة الإبداعية

يطرح شوپنهاور مقولة مفادُها: أن الحقيقة تكون دائمًا أكثر جمالًا إذا تعرت، ويكون التأثير عميقًا بقدر ما يكون التعبير عنها بسيطًا، ويرجع ذلك إلى أنها من خلال تعبيرها البسيط تستحوذ استحواذًا كاملًا على روح القارئ، ولا تدَعُ له من الخواطر الجانبية ما يشتت ذهنه، ومن ناحية أخرى فإن القارئ يشعر أنه لا يوجد من يحاول خديعته، وإفساد إدراكه بفنون البلاغة غير المفيدة. يدرك المُتفحِّص لكتاب (عالم صوفي) وعبر صفحاته وطوالها مدى احترام الكاتب للطفل / المتلقي من خلال طرحه للأفكار، وسرده للتاريخ بصدق وموضوعية، دون تقليل من قيمة الفكرة، أو تكبُّر معرفي على المتلقي، أو استهانة بعقله.

قدم الكاتب النرويجي (چوستاين غاردر) عبر صفحات كتابه (عالم صوفي) التي وصلت إلى أربعمائة صفحة دون أية رسوم أو صور توضيحية، رواية جاذبة ومُشوِّقة حول تاريخ الفلسفة، تعرض فيها لموضوعات شديدة الصعوبة والتعقيد بسلاسة وجمال، وقدم عبر الكتاب قصة (موازية) مشوقة تتصاعد أحداثها وتصل لذروة حبكتها الدرامية بينما هذا السرد التاريخي يتقدم بتُؤدَةٍ وأناقة، حيث اتسمت العبارات ببساطتها التركيبية وبيان معناها، واتسمت الأفكار المتضمنة (رغم صعوبتها المتوقعة) بالتحديد والوضوح، ورغم طول الكتاب، وكثرة الصفحات تمكن الكاتب من جذب المتلقي حتى نهاية رحلة الكتاب، دون أن يشعر المتلقي بالملل أو الرغبة في التوقف، وهذا النجاح يعود لأسباب فنية تتمثل في قدرته على الوصول للأسلوب المناسب والمعايير اللازمة لصناعة كتاب ناجح؛ فلقد خلا الكتاب من الأساليب الإنشائية التي تعتمد على الوعظ والنصيحة، والتي يشعر المتلقي معها بتعالي الكاتب وتكبره المعرفي أو الأخلاقي؛ ومن ثَمَّ يشعر وكأنه تحت وصايةٍ ما وهو ما نجح الكاتب في تلافيه ببراعة، رغم أن الكتاب يُعد في مضمونه كتابًا يستهدف تقديم معلومات تاريخية محددة، وأفكارًا فلسفية معقدة.

تمكن الكاتب من إحداث التوافق المطلوب بين اللغة والأفكار في بساطة ووضوح، وقدرته على تنويع الأسلوب وفقًا لطبيعة المضمون المطروح، وقد نجح الكاتب في تحدٍّ فائق عند طرح الفكرة من خلال استراتيچية أدبية مبدعة، وهي (الحكاية داخل الحكاية) وعبر طرح الاستراتيچية قدم عملًا فنيًا متماسكًا، حيث خلا الكتاب من الأساليب البلاغية غير المحببة للأطفال مثل الإطناب والإسهاب، وقدم من خلال عبارات بسيطة ومفردات معبرة عن فكرته بوضوح وقوة، ورغم طول الرواية لا نجد ضعفًا في تركيزه، أو وَهَنًا في أسلوبه، أو تهافتًا في أفكاره، أو تضاربًا في مواقفه

الداخلية متنوعة الأحداث، ومتعددة المستويات، بل ظل العمل متماسكًا ومشوقًا من الناحية الدرامية، بسيطًا وواضحًا من الناحية اللغوية، رصينًا وقويًا من الناحية الأسلوبية.

إذن نحن أمام كاتب يعي طبيعة المتلقي الذي يتوجه له، مثلما يعي الموضوع المُقدِم على معالجته، ويدرك طبيعة المرحلة العمرية المستهدفة، (وهي مرحلة المراهقة المتوسطة) حيث تمثل قضية "الهُويَّة" نقطة مركزية تشعل بال أغلب مَن في هذه المرحلة؛ ومن ثم يبدأ الكتاب بتساؤل غامض ومبهم حول الكينونة / الهُويَّة (من أنت؟!) هذا التساؤل الملغز ربما يتطلب جوابًا مزدوجًا حول الكينونة: كأن يقول أحدهم أنا يوسف... أو أنا ليلى .. طالب في الثانوية العامة... أو طالبة في كلية الآداب ...أفضِّل اللون البُني... أو أفضل اللون الأزرق... أعشق الأطعمة الحِرِّيفة... أو أكره منتجات الألبان.... يُسعدني التواجد بين أصدقائي وأفضل التواجد وسط الزحام والأغاني الصاخبة... أو تريحني الوحدة وأفضل الأماكن الهادئة. وهي إجابة شخصية، تطرح رؤية حول الذات الفردية، بينما هناك جواب آخر حول الهوية / الثقافية، وهو يعلم جيدًا أن الإلحاح على هذا السؤال وطرحه في صدر الكتاب يحفز المتلقي حول ما سيقدمه الكاتب، وهو تاريخ الفلسفة، وهو جزء من الكينونة الجمعية ردًا على السؤال المهم: مَن أنت؟! (عالم صوفي. رواية كتبها چوستاين غاردر، نُشرت في العام ١٩٩١، وقد كتبها باللغة النرويجية، وتُرجمت إلى لغات أخرى عديدة، تجاوزت الخمسين لغة، وترجمها إلى العربية ببراعة حياة الحويك عطية).

كامل كيلاني: الجدل الفلسفي حول "الأدب الملتزم"

كامل كيلاني: الكاتب والأديب المصري الذي اتخذ من أدب الأطفال طريقًا له فصار "رائد أدب الأطفال" في مصر والوطن العربي. قدّمَ عديد من الأعمالِ الموجهة إلى الطفل، وتُرجمت أعماله إلى عدَةِ لُغات، مِنها: الصينيَّة، والروسيَّة، والإسبانيَّة، والإنجليزيّة، والفرنسيّة. وُلِد "كامل كيلاني إبراهيم كيلاني" في القاهرة في العامَ ١٨٩٧، التَحقَ بمَدرسة أم عباس الابتدائية، ثمَ انتقل إلى مدرسة القاهرة الثانَوية، ومن بعدها انتسب إلى الجامعة المِصرية في العامَ ١٩١٧. اعتمَد كيلاني مَنهجًا متميزًا وأُسلوبًا متفردًا في كتابته لأدبِ الأطفال، واستخدم اللغة الفصحى بوصفها ضرورة؛ وخاصةً نتيجة ازدواج اللغة في المجتمع المصري، كما كان يمزج بين المنهجين: التربويّ والتعليمِيّ، فكان حريصًا على إبراز الجانب الأخلاقي والمعياري في أعماله.

حرص الكيلاني أن يلفت اهتمام الباحثين إلى أهمية أدب الأطفال، وإيمانه العميق بدور

كاتب الأطفال، في وقت مبكر من تاريخ أدب الأطفال، كما قدم الكيلاني مثالًا صارمًا للكاتب الملتزم، الذي يسعى إلى الارتقاء بمستوى الطفل وتنمية عقله ووجدانه، فقد حرص على أن يضع منهجًا محدد المعالم، يستند على رؤية تربوية نقدية علمية متكاملة، سواء من حيث استخدامه للعبارات، أم من حيث استخدامه للكلمات والمفردات، أم من حيث المحتوى وطرح الموضوعات التي تحقق أهدافه، والأفكار التي يود طرحها. وذلك عبر تقديمه أعمالًا تساعد في تنمية الطفل والارتقاء بعقله ووجدانه من خلال:

- مساعدة الطفل على النمو اجتماعيًا؛ ليستطيع الاختلاط بالآخرين والتعامل معهم، مع الاحتفاظ بصفاته الخاصة.
- تهذيب سلوك الأطفال وتحويل القيَم والفضائل والمُثل التي اكتسبها الطفل إلى سلوك حقيقي.
- مساعدة الطفل على التخفيف من حدَّة المشكلات الاجتماعية التي يواجهها.
- ربط الطفل بتراث أمته وحضارتها من خلال النصوص التي تتناول القضايا المختلفة على مر العصور.

أدرك الكيلاني أن الأدب يثري لغة الأطفال من خلال ما يزودهم به من ألفاظ وكلمات جديدة، كما أنه ينمي قدراتهم التعبيرية. ورغم درايته بضرورة التعامل مع قاموس خاص بمفردات الطفل، فإنه تمكن عبر رؤية واضحة، واستراتيـچية واعية، أن يقدم مفرداتٍ جديدةً في كل قصة من قصصه، ويحرص على تكرارها، ومن ثَمَّ شرحها، واستعمالها في حالات مختلفة حتى يطمئن إلى رسوخ المعنى في عقل المتلقي، مستهدفًا من ذلك إثراء لغة الطفل. وهو تعبير واضح على الخط الفكري الذي انتهجه الكاتب، وفي الوقت نفسه يسهم بوضوح في بناء شخصية الطفل. وقد أدرك أهمية تشكيل جميع حروف الكلمات لما في ذلك من تقويم للسان الطفل، وتعويده على النطق السليم. مدركًا أن اللغة الفصحى ليست لغة الكلام المتداولة، ومن ثَمَّ تمكن من مراعاة ازدواج اللغة في المجتمع المصري، إذ تُعدُّ عملية إثراء لغة الطفل أحد أهم أهداف أدب الأطفال، وذلك لأن الطفل في مراحله الأولى في حاجة إلى التمكُّن من مهارات اللغة: قراءةً، وكتابةً، واستماعًا، وحديثًا، ذلك أن اللغة وسيلته لاكتساب المعارف الأخرى. ويمكن لأدب الأطفال أن ينمي مهارة التعبير كذلك بتدريب الأطفال على التعبير عن مشاعرهم واستدعاء أفكارهم بسلاسة وطلاقة.

وتتضح الرؤية (الملتزمة) محددة المعالم من خلال:

- راعَى الكيلاني في أعماله المراحل العمرية للطفولة، وأدرك دور الأدب في بناء شخصية الطفل

من خلال تنميته عقليًا، ووجدانيًا، واجتماعيًا، ولغويًا، ويعدُّه كي يتحمل مسئولية المستقبل بوعيٍ وإخلاص.

- حرص على تقديم أنماط عديدة من القصص، استخدم فيها مستويات لغوية مختلفة بحسب المرحلة العمرية التي تُوجَّه إليها القصة؛ كي يُكسب الطفل القيم المختلفة التي تساعده على بناء شخصية قادرة على المشاركة في تنمية المجتمع.
- قدم الناحية الترفيهية الترويحية جنبًا إلى جنب مع النواحي العلمية، بحيث لم تطغَ واحدة على أخرى، حتى في القصص العلمية التي استخدم فيها الجمل البسيطة، والتعبيرات الجاذبة.
- كان حضور الخيال في أعمال الكيلاني فاعلًا جنبًا إلى جنب مع الأهداف العلمية / التربوية، وقد كانت الصور الخيالية المتتابعة جاذبةً للمتلقي، إلى جانب ما يتميز به المؤلف من قدرة تصويرية.
- يرتقي بالحس الفني / الجمالي لدى الطفل، فالقراءة طريق إلى تهذيب الذوق، وتنمية الحواس، وإبراز الموهبة في مراحل مبكرة من عمر الطفل.

ووفقًا لهذا يُعدُّ الأدب أداةً من أدوات تنشئة الطفل للمستقبل، يسهم في بناء شخصيته، ويسانده في رحلة نموه العقلي، مراعيًا مرحلته العمرية أحيانًا ومواكبًا لها، ودافعًا له إلى عوالم الفضول وحب الاستطلاع أحيانًا أخرى، فعظمة الأدب تكمن في بحثه الدءوب عن الطريقة التي تجعل (القارئ / الطفل) متوحدًا مع حب الاستطلاع والفضول إلى ما يتوق إلى معرفته، مغلفًا ذلك بمرونة ذهنية وتواضع، فالأدب في صميمه نشاط ناقد ومبدع ومتجدد؛ كي تصبح عملية القراءة عمليةَ بحثٍ وفهمٍ واعٍ وخبرةٍ إبداعية حول الفهم والتواصل الشامل. إذ من الضروري أن نأخذ في الاعتبار الامتلاك النقدي لتكوين ذواتهم، والذي يتشكل اجتماعيًا ليكون قوة ناشطة واعية تفكر، وتتواصل، وتتكلم، وتقرأ، وتكتب، وهذا هو المغزى.

أدب الأطفال وآفاق المستقبل

أمامنا – إذًا – واقع ثقافي مليء بعوامل إيجابية، وأخرى سلبية، ولدينا كثير من الإنجازات التي تحققت، يمكن لها أن تصبح نقطة البدء لمشروع ثقافى عام، ونمتلك الطموحات التي تسعى إلى تحقيقها وما ينقصنا هو رؤية شاملة للخريطة الثقافية، ونظرة عامة فاعلة ومستوعبة للمستقبل، إدراك عميق، أكيد وجديد لأدب الطفل وثقافته وفق مفاهيم عامة ورئيسة، وفق محددات

أساسية، أُطُر وأنماط شمولية وموضوعية، وعلينا الآن أن ننطلق من نقطة البدء، من اللحظة الراهنة لنتساءل جادِّين:

– كيف يمكن لنا العيش في عالم متقلب، غير معقول يكاد ينقض بعضه بعضًا؟

– وأي لون من التفكير يناسب زماننا القادم، ويهيئ مناخًا أكثر رحمة وأقل شقاء لأولادنا وأحفادنا؟

– وأيَّة وحدة نريد لهذه الفسيفساء الإنسانية المنتشرة في الأرض بلا حد؟

– وأى مذهب نريد في خِضمِّ هذه التعدديات المتصارعة في الاجتماع الإنساني؟

– وأي دور لنا بإزاء ذلك العالم الجديد؟

– وما الرؤية التي يجب أن نشكل وفقها ثقافة المستقبل؟

– وما الضرورة الوجودية التي تحكم أفعالنا تجاه أطفالنا وثقافتهم وأدبهم؟

وعليه يمكننا أن نحدد ما الذي يجب أن نقوم به من أداءات إزاء أطفالنا، وما ينبغي أن نقدم لهم لنتجاوز بها وبهم هذا الواقع نحو مستقبلٍ يكاد يمسك بتلابيبنا، ونسعى لامتلاك ناصيته، ونحن على ثقةٍ بأن قدرتنا وإمكاناتنا، إذا خلصت النوايا، يمكنها أن تصيغ هذه الطموحات والتطلعات حقائق فعلية، وإنجازت واقعية ملموسة.

مفاهيم أساسية

١) **الأصالة والمُعاصَرة**: من الضرورة بمكان لثقافتنا المعاصرة أن تقوم على ما يجمع مجتمعنا من لغة، رموز ومعايير وتراث، وأن ننتقي من كل هذا ما يصلح، بالإضافة إلى ضرورة أن نتوجه إلى الحاضر ومشكلاته بفعل جاد نتعرف فيه إلى الإيجابي والسلبي، المقبول والمرفوض، الثابت والمتغير؛ وكذلك حتمية أن نتطلع إلى المستقبل مستوعبين تحدياته ومدركين لكُنْهها، ومستفيدين من خبراتنا التراثية عبر حضارتنا الضاربة في عمق الزمان والمكان.

٢) **الوحدة والتنوع**: إن عناصر الوحدة في ثقافتنا مستمدة من وحدة التاريخ، اللغة، والقيم، والتراث، وتدعم هذه الوحدة حقائق أساسية جديدة فرضتها المتغيرات العالمية من وحدة المصالح. وفي الوقت نفسه، فإن عناصر التعدد واقع لا يمكن رفضه، قائم بالفعل ولا يمكن تجاهله، وهكذا... فإن عناصر الوحدة حقيقية وعناصر التعدد حقيقة أيضًا، ولكن المهم هو البعد الذي نقدر أن نستوعب منه عناصر التعدد وتأثيرها وضمنية الوحدة وضرورتها.

٣) **الهوية الثقافية والانفتاح على العالم**: لا شك أن الثقافة المصرية قد قامت على أساسٍ

متينٍ من تراثها القومي، ولكنها قد انفتحت على الثقافات الأخرى، أَثْرَت رصيدها باستيعاب مختلف الثقافات والحضارات، والاستناد إلى الوعي السليم والعقلانية الحكيمة، يمهد لنا لضرورة تعميق فهم الذات ومن ثَمَّ القدرة على التعامل الواعي مع الثقافات الأخرى كافةً، بمنطقٍ بعيد كل البعد عن الرفض الضيق أو الانبهار السطحي.

٤) **الطرح الإيجابي للتراث**: نحن بحاجة إلى التراث لكي نربط أطفالنا بجذورهم، ونزرع بذور الأصالة والمناعة الحضارية فيهم، وتحصينهم ضد محاولات التغريب الثقافي. والرغبة في إحياء التراث يجب أن تكون واعية لأن هذا الإحياء يرتكز على أن الماضي دافع وحافز لمواجهة الحاضر، وصناعة المستقبل ليصبح الماضي هو النقطة التي يمكن منها تجاوز الحاضر والانطلاق نحو المستقبل الأفضل، الذي يجمع فضائل الماضي وإيجابيات الحاضر وتطلعات المستقبل. ولا شك أن تراثنا ينطوي على الكثير من النجاحات والنماذج الإيجابية في جميع المجالات العلمية والأدبية والفكرية والبطولية، والتي يمكن أن تكون قدوة لهم من خلال رؤية متكاملة تهدف إلى نقل الحضارة العربية بجوانبها المضيئة كافة، والشمول والتوازن المدهش الذي امتازت به حضارتنا بين الروح والمادة، الفكر الأخلاقي والفكر العلمي والتكنولوچي في نسيجٍ رائعٍ ومترابط الأوصال.

٥) **الترويج للتفكير العلمي**: تُعدُّ تنمية التفكير العلمي وإطلاق القدرات العقلية والإبداعية لدى الأطفال، أحد العوامل المؤثرة والإيجابية القادرة على تنشئة جيل قادر على تحمل مسئوليات البناء والتنمية وتحرير المجتمع من التبعية الاقتصادية والاجتماعية. ومن هنا لا يمكننا الحديث عن مضمون الثقافة دون الالتفات لأهمية الحديث عن الدور الأساس لإطلاق قدرات الطفل العقلية والإبداعية، وتنمية قدرته على التفكير العلمي بما يعني من قدرة على الرؤية الموضوعية للأشياء، والقدرة على تحليل الأشياء لعناصرها البسيطة بغرض تفسيرها وفهمها، والقدرة على إعادة تركيبها وبالتالي القدرة على النقد ومعرفة المختلف والمتشابه والمتماثل، وامتلاك المنهج السليم وغيرها من أدوات التفكير العلمي، إذ يُعدُّ هذا أكثر أهميةً وثراءً من تقديم فيض من المعلومات الجامدة، التي تحتاج لتحريكها إلى تسلسل منطقي عقلي قد يكون مفقودًا أوغير متوافر.

محددات عامة لثقافة المستقبل

قد لا يكون هناك شيء أكثر أهميةً فيما نتوسمه في المستقبل القريب أو البعيد من هذا الإلحاح الشديد على ضرورة مواجهة العالم الجديد بفكر جديد... إذ إن علينا في مواجهة هذا كله أن نستنهض وعيًا أصيلًا شاملًا يعود بالأشياء إلى أصولها العميقة وجذورها الضاربة،

في الوقت الذي يمتد بها إلى مستقبلها البعيد واحتمالاته البعيدة، وتلك هي المهمة الصعبة التي تنتظرنا ونحن في مستهل القرن الجديد، إدراكًا لأن الوعى الأصيل المُعافَى هو وحده القادر على أن يسبك معطيات الماضي ورؤى المستقبل في دائرة فعله الخلَّاق.

ومن هنا يصبح لتحديد السمات العامة لثقافة الطفل التي تتأسس وفق رؤى تتطلع إلى المستقبل بما يحمله من متغيرات وتحديات ضرورة قصوى، استنادًا إلى أن تلك السمات المقترحة ستمثل المُحدِّدات والأُطُر العامة للمضامين المختلفة التي يحتويها أي عمل ثقافي، أو أية وسيلة اتصال ثقافية، جزئية كانت أو كلية، يمكن تقديمها للطفل. وأتصور أن هذه المحددات يمكن إيجازها في التالي:

١- إن وسائل التنمية الثقافية كثيرة، ولكنها مطالبة جميعها بأن تصبَّ في مجرى التنمية الشاملة للمجتمع، باعتبار الثقافة إحدى المكونات الرئيسة لسياسة إنمائية ذاتية ومستدامة. وعليه... ينبغي تنفيذها بالتنسيق مع المجالات الاجتماعية الأخرى في إطار منهج متكامل، وعلى أن تراعي كل سياسة – من أجل التنمية – الثقافة بقدر كبير.

٢ – لا يستهدف الاتصال الثقافي (نقل) الثقافة، بل الانتقاء الإيجابي لعناصرها المؤثرة وإثراؤها، والانعطاف بالقيم والمعايير والمعانى تحقيقًا لهدفٍ أسمَى وهو السعي لتشكيل ثقافة تتوافق وروح العصر، وتتلاءَم مع تطلعات المستقبل، وتتأسس على ترسيخ وعي أصيل بالذات الثقافية. وهي رؤية تطرح تساؤلًا مُلحًا يتعلق بسمات إنسان المستقبل في مجتمعنا، والذي يمثل بدوره طفل اليوم الذي نغرس فيه هذه السمات ونساهم في تشكيل طبيعته، وأظن – دون تجاوز – أن هذه السمات تتمثل في:

- إنسان متفرد، غير نمطي، معتز بذاته وبرؤيته الخاصة، وباختلافه عن الآخرين،
- قادر على التكيُّف المتواصل، منفتحًا على متغيرات العالم المتلاحقة ولديه القدرة على التكيف المستمر والتواصل الدائم والتأثير فيها،
- ممارس للتفكير النقدى، يرى المستقبل مفتوحًا، قابلًا للتشكُّل الدائم، ولديه القدرة على التحليل والتركيب، وفهم الواقع وفق عناصره المتعددة، وطرح البدائل والاختيارات،
- مبدع، لديه القدرة على الاكتشاف والابتكار، والمبادرة والفعل، قادر على التعلُّم الذاتي والمتواصل، إذ تتلاحق المعلومات وتتسارع الاكتشافات في العالم بأسلوب يضطره إلى ضرورة اعتماده على نفسه لملاحقتها، في جهدٍ متواصل، وهو لهذا السبب يمتلك القدرة

على استخدام التقنيات الحديثة من وسائل الاتصال والمعلومات، مثل: الكمبيوتر، والإنترنت وغيرها، لديه القدرة على ممارسة التفكير العلمي السليم، معتز بعقيدته، مُحترِم لعقائد الآخرين، قادر على تقبُّل الاختلاف والتعدُّدية، وتقبل النقد، واحترام الرأي الآخر، مثلما هو قادر على النقد والتعبير عن رأيه.

المراجع:

- أدب الاطفال علم وفن: أحمد نجيب - دار الفكر العربي - القاهرة- ١٩٩١.
- أدب الأطفال/ مقدمة قصيرة جدا: كيمبرلي رينولدز - ترجمة ياسر حسن. القاهرة- ٢١٠٢.
- أدب الطفل.. فلسفته وفنونه ووسائطه: هادي نعمان الهيتي- الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة الألف كتاب - القاهرة - ٦٨٩١.
- المعلمون بناة ثقافة: باولو فريري- ترجمة د.حامد عمار وآخرون- الدار المصرية اللبنانية- القاهرة - ٦٠٠٢.
- معنى الفن: هربرت ريد - ترجمة د.سامي خشبة- الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- ٨٩٩١.
- نحو فلسفة عربية للتربية: د.عبد الغنى النورى-د.عبد الغنى عبود-دار الفكر العربى -ط٢- ٠٧٩١
- نظرية الثقافة: مجموعة من الكتاب - على سيد الصاوى- عالم المعرفة عدد ٣٢٢- المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ٧٩٩١.
- فى التنمية العربية: د.إسماعيل صبرى عبدالله -دار المستقبل العربى-بيروت- ٣٨٩١.
- ثقافة الأطفال: د.هادى نعمان الهيتى - عالم المعرفة عدد ٢٣١- المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت- ٨٨٩١.
- فلسفة الفن... رؤية جديدة: حسين علي- التنوير للطباعة والنشر والتوزيع- ٩٠٠٢- بيروت- لبنان.
- التعليم والإعلام وتشكيل الوعى الثقافى: د.فؤادة عبد المنعم البكرى-مؤتمر ثقافة الطفل بين التعليم والإعلام كلية رياض الأطفال - القاهرة -٦٩٩١-
- الثقافة العربية وعصر المعلومات: د. نبيل راغب- عالم المعرفة ؛عدد ٥٦٢ - المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ١٠٠٢
- الخطة الشاملة للثقافة العربية: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس -٦٩٩١.
- تحضير الطفل العربى لعام ٢٠٠٠: د. محمد عماد زكى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ٠٩٩١.
- الرأسمالية تجدد نفسها: د.فؤادمرسى - عالم المعرفة - عدد ٧٤١ - المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب- الكويت - ٠٩٩١.
- أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم: عبد الفتاح أبو معال- دار الشروق للنشر والتوزيع- ط١- ٥٠٠٢ - فلسطين.
- في التربية الجمالية للإنسان: فريدريش شيللر - ترجمة د. وفاء محمد إبراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة١٩٩١.